

توحيد الله

الشيخ صالح بن عواد المغامسي حفظه الله

أن يعلم الإنسان أن الله جل وعلا لا رب غيره ولا إله سواه، وأن خزائن كل شيء بيده، وأنه خلق خلقه وهداهم النجدين فمنهم قريب ومنهم بعيد، وأنه جل وعلا خلقهم وسخرهم بمقتضى القبضتين فمنهم شقي وسعيد. وأن الأمر أمره، والخلق خلقه، والكل عنده عبيد قهروذلة شاءوا أم أبوا. وفي الحديث القدسي أنه صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله جل وعلا: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم).

يا عبادي! إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي! لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل ذي سؤال مسألته ما نقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه).

إذا أدرك المؤمن هذا يدرك أنه لا عز إلا بالتدلل لعظمته، ولا فوز إلا في طاعته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا نعيم إلا في قربيه، ولا صلاح ولا فلاح إلا في الإخلاص له مع توحيده وحبه جل وعلا.

هذا ربنا تبارك وتعالى خلقنا وهو غني كل الغنى عنا، فمن تعامل مع الله وهو يعلم أن الله قادر على كل شيء، وأنه إن اهتدى فبفضل من الله ونعمة، وإن ضل فبعدل وبما جنت يداه، وتعامل مع الله على أن الله مطلع عليه، إن قدم الحسنى فسيجازيه عليها، وإن عمل السيئة فسيجازيه عليها إن لم يغفر له؛ كان هذا من أعظم طرائق الوصول إلى الصلاح.

والإنسان إذا كان لا يعلم ربه فلن يحسن التعامل معه، ولذلك عرف الله جل وعلا بذاته العلية في آياته وعلى السنة رسله، وبين لرسله كيف يعرفون برهيم ويدلون الخلق على خالقهم حتى يحكموا عبادته تبارك وتعالى، يقول سبحانه بعد أن عرف بذاته العلية: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

فما من شيء إلا وخزائنه بيدي الله، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يقبض ويبسط، يعز ويذل، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وأعظم الناس فرحاً برهم وصلاحاً في أعمالهم هم أعلم الناس برهم جل وعلا، إلا أنه ينبغي أن يعلم أن روح العبودية يتمثل في محبة الله تبارك وتعالى، قال العلماء: إن المحبة كلما عظمت في القلب كان التوقير لله أعظم، وكان الإنسان إلى الطاعة أكثر إقبالاً وكان الأنس والسرور بالله جل وعلا أكمل.

قال ابن القيم رحمه الله: من قرّت عينه بالله قرّت له كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

فالمؤمن لا تقر عينه بأعظم من رضوان الله تبارك وتعالى عليه، وهو يعلم أن الله جعل الدنيا مراحل مطوية يبتلي ويختبر عباده فيها، حتى إذا قام الأشهاد وحشر العباد أدخل الله جل وعلا في رحمته أهل الصلاح الجنة، وأدخل أهل النار النار، كما أن المؤمن يعلم عن ربه جل وعلا أنه خالق الأسباب وخالق مسبباتها، فلا يكون شيء إلا إذا أَرَادَ اللهُ، ثم هذا الشيء - مما أحبه الله ومما كرهه - إذا وقع يكون بإرادته تبارك وتعالى.

لما تعطلت الأسباب عند زكريا طلب من الله الولد، فلما بشره الله بالولد تعجب قائلاً: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [آل عمران: ٤٠] فجاء الجواب القرآني: {قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران: ٤٠].

ولما انتفت الأسباب في قصة مريم وأخبرتها الملائكة بأن الله سيرزقها الولد تعجبت قائلة: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ} [آل عمران: ٤٧] فكان الجواب الإلهي: {قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٤٧]